الفصل الثالث

إحسان عبد القدوس

في قصة «لاعب الكرة.. يحب»، مجموعة «بنت السلطان»، يقدم إحسان عبدالقدوس تجربة مهمة، تنعقد البطولة فيها للاعب الكرة المعتزل برعي محمد السيد، الذي يعرّف نفسه على النحو التالي:

«أنا برعي محمد السيد..

لا تقولوا إنكم نسيتموني..

برعي. كابتن النادي الأهلي عام 53.. وجناح أيمن منتخب مصر.. لا يمكن أن تكونوا قد نسيتموه!..

أين أنا الآن؟..

أنا موظف في الدرجة الخامسة بوزارة الأشغال.. تزوجت.. وعندي ولدان وبنت..».

الإلحاح على صعوبة النسيان بمثابة التعبير عن مخاوف حقيقية تسكنه بأنه منسيّ، فبعد سنوات قلائل من الاعتزال وهجران الملاعب، تنسحب الأضواء وتتراجع الشهرة. يتحول برعي من نجم ذي مكانة، تهتف له الجماهير الغفيرة عاشقة كرة القدم، إلى موظف مغمور من آحاد الناس، يقبع في وظيفة صغيرة متواضعة، ولا يختلف في شيء عن ملايين البسطاء. يقنع مضطرًّا بالحياة الزوجية التقليدية، لكنه لا ينسى سنوات المجد والشهرة والتوهج، عندما كان مطمعًا للجميلات المولعات بمطاردة نجوم الكرة والتقرب إليهم.

اعتزال برعي لا يعني تخليه عن الارتباط الوثيق بالكرة، فهو حريص على متابعة المباريات،

obeikandi.com

عبر الإذاعة أولاً، ثم من خلال شاشة التليفزيون، الأداة الإعلامية ذات الدور الأكثر أهمية في انتشار شعبية كرة القدم وصناعة نجومية اللاعبين. لا يستطيع برعي أن يتخلص من مؤثرات اللعبة التي تشكّل جوهر حياته: «إني لازلت أعيش في الملعب.. عقلي وروحي وأعصابي كلها في الملعب.. ولو أني لا أذهب إلى الملاعب.. فقط أتتبع المباريات في الإذاعة، ثم أصبحت أتتبعها على شاشة التلفزيون.. وعيناي مفتوحتان على آخرهما.. وأصرخ.. شوط يا مغفل.. اصح يا ريعو.. وقدمي تتحرك في الهواء كأني أشوط الكرة.. وأنفاسي تلهث كأني أجري.. ومن حولي أولادي يضحكون عليّ.. وزوجتي تبتسم لي في إشفاق.. وأسمع هتاف الجماهير.. فيخيل إليّ أنهم يهتفون لي.. شوط يا برعي.. العب يا برعي.. ينصر دينك يا برعي.. برافو يا برعي.. لقد هتفت لي الجماهير كثيرًا.. كنت أتغذى بهتافها.. لم أكن أجري في الملعب بأنفاسي.. كنت أجري بأنفاس هذه الألوف المتراصة فوق المدرجات.. وكنت أجري نحو هدف.. لم يكن الهدف الأخير هو أن أصيب الجول.. كان الهدف الأخير هو أن أسمع هذه الصرخة القوية الحلوة التي تنطلق من أفواه الجماهير.. جون.. جون..».

يتابع اللاعبين بخبرته كأنه يلعب معهم، والمبالغة في الانفعال والاندماج تقوده إلى حالة غرائبية تستدعي ضحكات الأبناء وابتسامة الإشفاق من الزوجة، فالموقف كاريكاتوري لا يسهل استيعابه. الأمر هنا لا يتعلق بمشجع عادي ينتمي إلى النادي الأهلي و يذوب في دوامات الحماس والحب، فاللاعب المعتزل يستعيد تاريخه مستعينًا بالخيال الذي يعيد إنتاج الماضي القريب، حيث النشوة المنعشة بهتاف وصراخ وتفاعل آلاف المحتشدين في المدرجات.

ذروة التحقق في تسجيل الأهداف وما يترتب عليها من تهليل جماهيري، يصنع حالة السعادة التي لا يعرف أبعادها إلا اللاعبون: «كأن السماء تزغرد لي». وفقًا لما يقوله برعي، الذي يميل إلى المبالغة، فإنه هدّاف كبير: «لقد أصبت جول الزمالك 32 مرة.. وأصبت جول الترسانة 17 مرة.. وأصبت جول الأولمبي 23 مرة.. و.. و.. كانت كل طلعة من طلعاتي جول.. إذا التصقت الكرة بقدمي، فلا أمل.. قل يا رحمن يا رحيم.. وأخرج محمولاً على الأعناق».

الأرقام التي يباهي بها برعي مغلوطة لا وجود لها في تاريخ الكرة المصرية، وقد لا توجد مشكلة في عدد الأهداف التي يزعم تسجيلها في مباريات الترسانة والأولمبي، لكن لقاءات

الأهلي مع الزمالك تحظى بالاهتمام الإحصائي لوسائل الإعلام، وعلى مدى التاريخ الكروي لم يستطع أحد لاعبي الأهلي أن يسجل مثل هذا العدد من الأهداف في مرمى الزمالك. لا تفسير لكذبة كهذه إلا تداعيات ما بعد الاعتزال، حيث الإسراف في تقدير الذات تعويضًا عن معاناة الإهمال والنسيان.

الجفاف سمة ملازمة لواقع اللاعب المعتزل، الذي تخاصمه الأضواء بعد إقبال طويل، لكنه يشير في تداعياته إلى ملمح مهم جدير بالانتباه والاهتمام، لأنه يتجاوز كرة القدم إلى رحابة الحياة الاجتماعية بشكل عام: «لم تكن الدرجة الثالثة وحدها هي التي تجري إلى داخل الملعب لتحملني على أعناقها.. الدرجة الأولى أيضًا.. فكري أباظة اندفع نحوي مرة ليقبلني عقب مباراة الأهلي والزمالك.. ولم يستطع أن يصل إليّ.. هصرته الجماهير.. وسقطت نظارته من فوق عينيه، وتحطمت تحت أقدام الناس.. أتذكرون الأسلاك الشائكة التي وضعت حول ملعب النادي الأهلي، لقد وضعت خصيصًا لتحميني من الجمهور».

الإسراف في النرجسية يبرر الادعاء الخاص بالأسلاك الشائكة، التي توضع خصيصًا لحمايته من المعجبين الذين يلهثون وراءه، ومنهم قامة صحفية وفكرية مثل فكري باشا أباظة، لكن الإجماع الطبقي على الإعجاب بنجوم الكرة صحيح في جملته. الرياضة الشعبية واسعة الانتشار عابرة للطبقات، وجمهورها العريض موزع بين الأغنياء والفقراء ومتوسطي الحال. المنسوب إلى الصحفي الكبير، في جانب منه، يعبر عن الحماس الذي لا يضع للهيبة والمكانة الاجتماعية اعتبارًا، وكم من الفتيات الجميلات المنتميات إلى الصفوة الطبقية، اللاتي تندفعن إلى إقامة علاقات عاطفية مع النجوم الأشهر في ساحة الكرة، وهو إقبال لا يختلف عن حرصهن على الارتباط بنجوم الفن.

الأرستقراطية شريفة، ابنة المستشار ومالكة السيارة الحمراء، واحدة من هؤلاء الفتيات، وتلعب دورًا بالغ الأهمية والخطورة في حياة برعي محمد السيد، خلال سنوات شهرته وازدهاره. تتابع المباريات بانتظام ينمّ عن الولع بالكرة والتعلق بلاعبيها: «إنها لا تستطيع أن تغيب عن أية مباراة.. لقد كانت مريضة يومًا.. حرارتها تسعة وثلاثين.. ورغم ذلك جاءت لتشاهد المباراة».

بمبادرة منها تبدأ العلاقة، أما برعي نفسه فلم يكن يحلم بمعرفتها أو الاقتراب من عالمها: «شريفة هي التي تسللت إليّ.. لقد جاءت إليّ عقب إحدى مباريات العام الماضي.. كنا في المساء.. وكنت قد غيرت ملابسي وجلست أشرب كوب الشاي الذي تعودت أن أشربه بعد اللعب.. وقالت لي:

- كنت هايل يا برعي..

وانتفضت أمامها واقفًا، وأنا لا أصدق أنها هي التي تحادثني.. وقلت:

- ربنا يخليكي يا أفندم..

وابتسمت لي ابتسامة لم أر في حياتي أجمل منها.. ابتسامة دق لها قلبي».

قبل لقائهما هذا، كان برعي على يقين من تفرد بنات العائلات الكبيرة، قانعًا برؤيتها في النادي من بعيد، مدركًا أنها ستظل دائمًا بعيدة لأسباب طبقية. السدود الاجتماعية قائمة، والفوارق الشاسعة لا يمكن عبورها أو إهمالها، لكنها هي من تبادر، ولا شيء فيه يغري بالاقتراب إلا الشهرة والنجومية. تتحكم بجسارتها وقوتها في مسار العلاقة، وتحاصره كأنها تطارد صيدًا ثمينًا. تغدق عليه بالهدايا، وصولاً إلى علاقة تليق بشابة مطلقة مرفهة متحررة من كل قيد: «كانت تأخذني إلى بيت في شارع قصر النيل.. إلى الجنة.. وتعطيني.. تعطيني أكثر.. وأكثر».

الحديث عن الحب، بالمعنى الصحي الصحيح، لا يمكن أن يكون واردًا في علاقة كهذه، فهي تحب شهرة اللاعب ونجوميته في المقام الأول، وتجد في الاستحواذ عليه انتصارًا يلذّ لها ويسعدها وتنتعش به. في هذا السياق، لا ضير في التخلص منه عندما ينتفي الغرض من استخدامه، فما أكثر النجوم أصحاب الشهرة، في ساحة الكرة أو غيرها من الساحات، ومحسن هو البديل: «لقد أمسكته من عنقه وجذبته خارج السيارة.. وضربته.. لا أدري أين ضربته.. ولكني عندما رفعت رأسي لم أجد شريفة ولا سيارتها.. ووجدت يدي ملوثة بدم محسن».

عام من السعادة الهشة التي لا تنهض على أساس متين، ثم يقع الصدام المنطقي المتوقع. شجار وقطيعة وانصراف كامل من الفتاة الأرستقراطية التي تدمن التسلية وحب النجوم، وينعكس الأمر سلبًا على اللاعب الذي يتراجع عطاؤه في الملعب فتنقلب عليه الجماهير،

وتهتف ضده بعد أن كانت تهلل له: «إن الجمهور يتغير بسرعة.. وشوشو تغيرت بعد سنة.. أصبحت تلطعني في النادي بالساعات.. ثم بالأيام».

الحب الذي يحظى به برعي ويتمتع بثماره الطيبة، من جماهير الكرة وشريفة على حد سواء، لا ينبع من الإعجاب بشخصيته وسماته. العاطفة عند الكتلة الجماهيرية المحبة للكرة تنصب على أداء اللاعب، وتقترن عند شريفة ومثيلاتها بالنجومية والشهرة وتسليط الأضواء الإعلامية. عندما يتراجع العطاء في الملعب وتتبخر الشهرة، ينتهي الحب المؤقت المشروط، ويبدو منطقيًّا عندئذ أن يعود برعي واحدًا من آحاد الناس: «اعتزلت الكرة.. وزوجتني أمي فتاة من صنفنا»!.

لا شيء يبقى بعد الاعتزال ومغادرة الملاعب إلا بقايا الذكريات، ومتابعة المباريات عبر شاشة التليفزيون كأنه يلعب، لكنه في الحقيقة لا يفعل شيئًا إلا اجترار الماضي الكروي والعاطفي في إطار شجني قوامه الحسرة والوجع والحنين المستحيل.

يقدم إحسان عبدالقدوس في قصته ملمحين مهمين جديرين بالاهتمام والتأمل: يتعلق أولهما بطبيعة حياة نجوم الكرة في مرحلة الازدهار والتألق والشهرة، ويرتبط ثانيهما بالنمط المغاير من الحياة الحافلة بعد الاعتزال وانحسار الأضواء.

في مرحلة النجومية، يتهافت الجميع على اللاعب ويتقربون إليه وتزداد فرصته في إقامة علاقات عاطفية مع فتيات مرفهات تتوزع عواطفهن بين نجوم السينما والملاعب. بفضل واحدة من العاشقات الأرستقراطيات غير الجادات بطبيعة الحال، تنتهي حياة برعي الكروية قبل الأوان، فهو لا يدرك أن حبها له ليس حبًّا حقيقيًّا، وتؤثر الأزمة العاطفية في تركيزه وأسلوب أدائه، فيتراجع مستواه ويتنكر له الجمهور المحب في المدرجات. مع الاعتزال تتبخر الشهرة وتنسحب الأضواء، ولا تبقى إلا الذكريات التي لا تغني عن المجد القديم شيئًا!.

بعد الاعتزال والتحول الاضطراري إلى صفوف المشاهدين، يحتفظ برعي بالولاء العاطفي الكامل تجاه ناديه، ويستمر في التشجيع الحماسي الحافل بالانفعال، لكنه لا ينجو من مشاعر مضطربة معقدة تجاه الأجيال التالية له من اللاعبين. يتمثل ذلك بوضوح في التقييم الذي يتسم بالكثير من التحامل، ويعكس فكرة صراع الأجيال:

«كانت أيام..

كنا نلعب الكرة..

أمـا اليـوم.. فاللاعبـون يجرون، ولكنهـم لا يلعبـون.. و إذا كانوا يلعبـون، فهم يلعبون استغماية.. ضيعوا النادي الأهلي.. ضاع الدوري وضاع الكأس.. الله يكسفهم!..

وقلبي ينشق.. إني أرى الأهلي يتمرمط أمام عيني، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا.. وأرى الجون فـاضي.. يكفـي أن تزيح الكرة بقدمك لتسـجل هدفًـا.. ولكن المغفل الـذي يلعب للأهلي لا يستطيع أن يزيح الكرة.. وأنا أمام شاشة التليفزيون لا أستطيع أن أفعل شيئًا.. فقط أصرخ.. وأشوح بذراعي.. وأشد شعري.. فقد اعتزلت.. اعتزلت الكرة منذ عشر سنوات».

كأن أمجـاد الأهلي وانتصاراته رهينة ببرعي وحده، ومع اعتزاله يظهر لاعبون «مغفلون» محدودو المهارة، يهدرون الفرص السهلة فتحل الهزائم والانكسارات!.

□□□

obeikandl.com